الدبلجة بين الانتقاء والرقابة

عاصف حسنة *

الرّقم التعريفي للمقال: DOI: 10.33705/1111-000.010.007

مقدمة

لقد أضحت الدبلجة ظاهرة تعانق كل القنوات الفضائية والمحلية، وواقعا لا مفر منه، قد مس جل البرامج الترفيهية والإخبارية والسنيمائية وكذا الدرامية. بعدما انحصر في بادئ الأمر في نقل الأفلام فحسب سواء الكرتونية أم السنيمائية الحية. بل هناك بعض القنوات في أيامنا هذه قد انصرفت الى بث معظم البرامج الأمريكية باستعمال الدبلجة الصوتية أو العنونة أو تقنية الصوت الفوقي voice overالمشكلة لا تتمثل في هذه الظاهرة في حد ذاتها؛ لأننا نعتبرها نقلا لغويا جديدا قد أفرزته التّطورات السنيمائية والتّلفزيونية وكذا العولمة التي جعلت من العالم الكبير قرية صغيرة منفتحة على كل الأقوام والأمم بمختلف لغاتها ومعتقداتها. وإنّما المعضلة التي نرى أنّها تستحق الوقوف عندها وتحليلها ومعالجتها هي طريقة النّقل التي لا تفتأ أن تنقل العمل بغثه وسمينه بدون غربلة أو تصفية بما تستدعيه الخلفية الثقافية والدينية والاجتماعية. ضف إلى ذلك سياسة الاختيار المنتهجة، التي تشعرك أحيانا أنّ البرامج التّي اختيرت لتدبلج للعالم العربي والمشاهد المسلم على وجه الخصوص تهدف أساسا إلى كسر القواعد الاجتماعية المنبثقة من عادات وتقاليد العربي المسلم والمؤسّسة على تعاليم الدين الاسلامي الحنيف. على عكس الدول الأوروبية التّي اتّخذت من دبلجة الأعمال الفنية إحدى وسائل الحفاظ على اللّغة و الهوية المحلية كما يقول نائب رئيس اتحاد الفنانين العرب المخرج العماني خالد بن عبد الرحيم الزدجالي مردفا: " كثير من دول أوروبا تستخدم الدبلجة بشكل كبير جداً وبخاصة في الأعمال النّاطقة باللّغة الانجليزية ، حيث تدبلج للغات المحلية كالفرنسية والاسبانية والألمانية والرومانية وغيرها ، وكل تلك الدول تدبلج الأفلام والمسلسلات الأمريكية إلى لغتها المحلية من أجل الحفاظ على اللّغة واللّهجة المحلية، فالدبلجة مقننة منذ سنوات طويلة في أوروبا، لأنّ الدول الأوروبية تخوفت من طغيان الثّقافة الأمريكية على مجتمعاتها فلجأت إلى الدبلجة للحفاظ على هويتها المحلية. وفي نفس الوقت عدم حرمان الشّعوب الأوروبية من مشاهدة نجوم هوليوود العالميين والاستمتاع بأعمالهم الفنية [1] " كما انتشرت الدبلجة في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها بعد أن استهوتهم المسلسلات المكسيكية ذات الحلقات الطويلة جداً، ولكنّهم حاولوا أيضاً الحفاظ على لغتهم الانجليزية من اللّغة اللاتينية في الأعمال المكسيكية، فقاموا بدبلجة الأعمال المكسيكية، وبالتّالي أصبح هناك نوع من التّبادل. فالأمريكيون يدبلجون أعمالاً غير أمريكية ودول العالم الآخر تدبلج الأعمال الأمريكية إلى لغاتها المحلية. وندرج أمثلة عن حال

* جامعة وهران 1

الدبلجة في البلاد الأوروبية والأمريكية لنثبت يقيناً أنّ المشكلة الأساسية ليست في حد الدبلجة كما اتهمها الكثيرون في الوطن العربي وإنّما في كيفية تنفيذها واختيار مادتها كما أسلفنا الذكر. لذلك سيتمحور موضوعنا حول هاتين النّقطتين ألا وهما:

1-سياسة اختيار مادة الدبلجة في العالم العربي.

2-طريقة الدبلجة ودور الرقابة الزائف.

سياسة اختيار مادة الدبلجة في العالم العربي:

هل فعلا هناك سياسة محدّدة لاختيار مادة الدبلجة قبل نقلها للعالم العربي؟ هل فعلا تراعي شركات الانتاج تركيبة المجتمع العربي المسلم والمحافظ خلال اختيارها لمادة الدبلجة لتبث للمشاهد العربي؟ هل تراعي المستويات السلوكية والأخلاقية لدى المراهق والطفل والشاب؟؟ يرى الفنّان العراقي " فلاح هاشم " [2] أن ما يقدم حالياً عبر الشّاشة الصغيرة من أعمال كرتونية ، تجارية، ولا توجد بها قيم تربوية للأطفال، وتؤثر بشكل سلبي عليهم من نواح عدّة منها المجتمعية والشّخصية، وكذلك اللّغوية.، فيصف قائلا: " حالياً الجهات التّي تعنى بإنتاج أعمال الكرتون، أو شراء حقوق عرضها عربياً من الخارج ودبلجتها، هدفها تجاري، ومسؤولوها لا يولون أي أهمية لما يقدم في هذه الأعمال للأطفال وأصبحت مليئة بالعنف، مشيراً إلى أنّ هناك بعض الأعمال التّي قدمت في السّابق وتندرج في قائمة أعمال العنف مثل «غرندايزر» و«مازنجر» و«الرجل الحديدي» ، لكن في الحقيقة كان بها جرعة بسيطة جداً من العنف والحركة وفي الوقت نفسه حلقاتها بها رسائل هادفة للأطفال [3]. "

أمّا المخرج العماني محمد الكندي الذي ينظر الى انتشار دبلجة الأعمال الفنية سواء المكسيكية أم التّركية أم الهندية أو غيرها من الأعمال الدرامية الأخرى إلى اللّغة العربية على أنّه أحد الدّلائل على كسل الشّعوب العربية فيقول : " إنّ السّبب وراء انتشار هذا النّوع من المسلسلات في المجتمعات العربية أنّنا مجتمعات كسولة تود الاستماع إلى الأعمال الفنية الأجنبية بلغتها العربية من دون أن تبذل أي عناء حتى في قراءة التّرجمة وهو ما يؤثر على التّركيز في الجوانب الفنية، وبخاصة مع انتشار الدبلجة بعدة لهجات عربية، وليست اللّغة العربية الفصحى الموحدة ". [4]

ويتفق المخرج السّوري رامي مرتضى مع الكندي في نظرية التّكاسل التّي أدّت إلى انتشار الأعمال المدبلجة ولكنه يرى أنّ الكسل اقتصادي وبخاصة في النّواحي المتعلقة بالإنتاج، حيث يقول: " بدأت دبلجة المسلسلات المكسيكية ثم التّركية والهندية ، ولا يعود انتشار تلك الأعمال في الوطن العربي لأسباب فنية، وإنّما لأسباب اقتصادية وبخاصة مع ارتفاع التّكلفة الانتاجية للأعمال العربية مقارنة بغيرها من الأعمال التّي تتّم دبلجتها، كما أنّنا كمنتجين في الوطن العربي لا نغامر كثيرا في الانتاج الدرامي التلفزيوني، ونعتبرها تجارة غير مربحة ونستسهل شراء الأعمال الفنية الجاهزة وإعادة تغليفها " دبلجتها " ثم توزيعها على القنوات التلفزيونية التّي تكون متعاقدة مسبقا على عرض تلك الأعمال، ومن

دون بذل مجهود في تقديم عمل فني متميز قد تقبل عليه الدول الأخرى لدبلجته. فنحن مع الأسف نفضّل الربح السريع والمضمون، وهذه هي أكبر مشكلات الإنتاج العربي حاليا، فمعظم الانتاج الذي يحدث حاليا هو انتاج حكومي، حيث يقوم شخص بعرض السيناريو على المؤسسة الحكومية، فإذا أعجبت به تقوم هي بإنتاجه، وبالتّالي يصبح منتجاً منفذاً فقط [5] ." إذن الدبلجة مؤثرة بالسّلب على انتاجنا الدرامي العربي والخليجي وبخاصة مع انتشار الدراما التّركية تحديداً، ما همش الكثير من فرص الممثلين والكتاب الرّاغبين في انتاج أعمال فنية متميزة.

ويؤكد الزدجالي رأي مرتضى حول نظرية التّكاسل الاقتصادي في الانتاج الفني قائلا:" مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، انتشرت الدبلجة في الوطن العربي وبدأت مع دبلجة الأعمال الكرتونية اليابانية والتّي كانت من أكثر الأعمال الكرتونية انتشارا في العالم مثل (كابتن ماجد، مازنجر، جرين دايزر) ومع صعوبة اللّغة اليابانية انتشرت دبلجة تلك المسلسلات. ولأنّنا في الدول العربية اعتدنا على شراء أفلام الكرتون رخيصة الثمن، فقد انتشرت الأعمال اليابانية والصينية واللاتينية في الوطن العربي انتشار النار في الهشيم [6] .

من خلال أراء أصحاب الاختصاص في المجال الفني، نستشف أن الدبلجة قد ولّدت ظاهرة جديدة في الوسط الفني والدرامي والإبداعي ألا وهو التّكاسل الاقتصادي المنبثق أساسا من جُحر استرخاص المادة المدبلجة مقارنة بالمادة المنتجة عربياً. وبالتّالي ترتكز سياسة اختيار مادة الدبلجة في العالم العربي على نقطتين أساسيتين: ثمن مادة الدبلجة الزهيد مقارنة بالإنتاج العربي الأصلي والدّافع التّجاري البحت الذي يحكمه رواج المادة في البلد الأصل بغض النظر م إذا كانت المادة تلائم عقلية وعقيدة العربي المسلم أم لا. وعلى غرار البلدان الاوروبية، تفضل البلدان العربية الدبلجة على العنونة (الترجمة). فبالنسبة للبلدان الاوروبية يعود السبب كما أسلفنا للحفاظ على ثقافة ولغة البلد، و لكن بالنسبة للبلدان العربية، تعد العنونة (الترجمة) خيارا سينمائيا لم يطل الدراما إلا في بعض المسلسلات الأمريكية المعروفة والمشهورة مثل مسلسل (Friends) أو (Desperate Housewives) وغيرها. فالّذين يتابعون الأفلام بالعنونة (الترجمة النصية) على الشّاشة في الواقع يتابعون القصة مكتوبة لا مصورة. فلا يمكن التّركيز على شيئين في الوقت نفسه. فتفوت المُشاهد كثيرا من المَشاهد وتعابير الوجوه وتفاصيل الصورة ذاتها بما تحتويه من مادة درامية. مضافاً إلى ذلك سوء الترجمة في كثير من الأحيان، بسبب سوء فهم فحوى الجمل والمصطلحات. مردفين نظرية الكسل التّي طالت المشاهد العربي الذي يريد متابعة تفاصيل الأحداث دون إجهاد نفسه في قراءة العناوين والتّرجمة.

نظرا لهذه الأسباب وغيرها دفعت بالقائمين على الدبلجة في العالم العربي لخيار الدبلجة دون العنونة. وهو ما لاحظناه فعليا من خلال دبلجة المسلسلات المكسيكية ثم في المسلسلات التركية والهندية والكورية وأفلام الكرتون. وفي الحقيقة لا نجد كل الأصوات تندد ضد الدبلجة، بالعكس هناك من يجدها

نعمة محمودة على قول الفنان السعودي "عبد الله بخيت" الذي رأى " أنّ الدبلجة قد قربت الفن الدرامي من النّاس وخففت من عبء القراءة. صار المشاهد يتماهى مع الأحداث. إذا تطورت عربيا سوف تضيف شيئا جديداً سيخدم الفن الدرامي العربي. سقوط حاجز اللّغة سيدفع المشاهد العربي إلى مشاهدة الأفلام والمسلسلات الأجنبية بكثافة. سيرتفع ذوقه وحسه الفني وقدرته على التّقييم. عندئذ لن يبقى أسير الرداءة التّي تعاني منها كثير من الأعمال العربية. تطور الدبلجة سيشكل تحديا للمنتج العربي. سيوفر له فرص نجاح كبيرة من خلال الدخول في المنافسة مع الأجنبي عبر الجودة وليس عبر سجن اللّغة والاحتكار.التّحدي اليوم عالمي [7] . "

وتعد الدّبلجة وسيلة من وسائل رأب أي نقيصة تطال الإنتاج العربي، لسد ثغرات ضعف الانتاج الوطني بغض النّظر ما اذا كانت تفتقر الى المهنية أم لا، لأنّه ليس كل ما هو مدبلج يتسم بالجودة العالية كما يرى الفنان عبد الله بخيت. حيث أنّ المسلسلات المدبلجة في جلها لها أثر لغوي و ثقافي على المتلقي وكما أثبتت معظم الدراسات الميدانية في الوطن العربي " . إن انتشار المسلسلات المدبلجة على قنواتنا العمومية الواحدة تلو الاخرى والتي تفتقر إلى المهنية وتسعى إلى تحقيق الربح المادي على حساب التّكوين اللّغوي والفكري، ما هي إلا وسيلة لسد ثغرات ضعف الإنتاج الوطني، في حين يرى البعض الآخر أنّها أصبحت تلعب دورا حاسما في صناعة الرأي العام وتشكيل العقول واسقاط الايديولوجيات التّي يستخدمها الشخص لاستكمال بناء الواقع الاجتماعي، الذي يدركه بالخبرة المباشرة خاصة لدى الأطفال والمراهقين[8]..

دور الرقابة

كانت السّنوات الأخيرة قد شهدت طوفاناً من «الدّبلجة»، شمل مسلسلات «أجنبية» و«وافدة» عدّة، لعلّ أبرزها وأشهرها، وربما أنجحها، المسلسلات التّركية التّي حققّت نسبة مشاهدة عالية لا في بلد المنشأ فحسب، وإنّما في دبلجتها العربية التّي حدَت بملايين العرب إلى الالتصاق بشاشاتهم، حدّ الهوس، والتّماهي مع شخصيات ارتدت لهجة عربية وأسماء عربية مثل «لميس» و«مهند» و«نور»، حتى أنّ أسماء الشّخصيات التّركية الأصلية ذابت فحضرت أسماؤها «المعرَّبة». بل تطوَّر الأمر إلى حدّ أنّ الممثل التّركي الأشهر كيفانتش تاتليتوغ الذي اشتُهر بدور «مهنّد» في مسلسل «نور»، وبات «محبوب» النّسوة «العربيّات» لم ينل الرضا المتوقع حين ظهر تحت اسم «خليل» في مسلسل تركي مدبلج بعنوان «ميرنا وخليل»، فرجع – على يد «مدبلجيه» – إلى اسمه المعرَّب الأول «مهنّد» في مسلسل «العشق الممنوع» إرضاء لقلوب الآلاف التي تعلّقت بمهنّد في الأساس.

إذا سلمنا أنّ سياسة اختيار مادة الدبلجة تعتمد أساساً على العامل التّجاري الربحي البحت وظاهر التّكاسل الاقتصادي والخمول الثّقافي الذي يعيشه العالم العربي، فالسؤال الذي يطرح نفسه أين الرقابة ؟؟ التي تعد مؤشر الجودة والرداءة، والحَكم الذي يؤيد دخول المنتج للعالم العربي من عدمه. أين الرقابة ؟؟

التّي تفرض شروطاً صارمةً وتُرئس المقص إن وجدت أي لقطات لا تناسب التّركيبة الفكرية والثّقافية والسّلوكية للمشاهد العربي بمختلف أعماره. لماذا نجد السوق الدرامية قد أغرقت بالمسلسلات الهندية التّي تروج صراحة لعبادة الأصنام وتبث طقوس عبادة صنم البوذا صراحة وتترجمه بعبارة "القدير" اشارة للصنم !!! ونحن نوقن أنّ القدير اسم من أسماء الله الحسنى (جل وتعالى). لماذا نجد السّوق الدرامية قد أغرقت بالمسلسلات التّركية التّي لا تدع سوى للعري ومصاحبة الشباب والمعاشرة وظاهرة المساكنة.

" ليست الدّبلجة بالمسألة المستجدّة، لكنّها تنذر بأن تكون حالةً «معتمدة» بمنطق «التّطبيع» الثّقافي واللّغوي فهي وإن أزالت حواجز وعوائق في الفهم الآني إلا أنّها تخلق تشابهات وتماثلات وتقاطعات فكرية مفبرَكة أومضلِّلة. فالدّبلجة وإن حشرت «الآخر» في قالبنا اللّغوي، أو بالأحرى «اللّهجوي» إلا أنّها لا تستطيع أن تحشره في واقعنا الثّقافي والاجتماعي. فلماذا الإصرار على أن يجعل الآخر يغادر لغته، وبيئة لغته، إلى لغتنا أو ما يشبهنا بأي ثمن؟! " (9)

لا ريب أنّ للدبلجة محاسن ولكن بهذه السياسة التّجارية العارية من أي خلفية ثقافية وفي غياب الرقابة التّام. نجد أنّ مساوئها قد طغت على محاسنها. وأهدافها السامية الرامية إلى تقريب الشّعوب والأفكار قد اضمحلت وانكسرت أمام أمواج الربح والنّقل الأعمى والتّرويج لأيديولوجيات معينة. لقد أضحت هذه الظاهرة قتلاً صريحاً للإبداع العربي وإطلاق بنات أفكار شبابنا وترسيخ العادات والتّقاليد العربية الإسلامية في الأجيال النّاشئة. نرى أنّ الطبيب الشّافي لهذه النّقل غير المسؤول هو الإنتاج العربي المنبثق من البيئة العربية البعيد عن تقليد الآخر، حيث العالم العربي يعج بالأفكار وبالشّباب المبدع القادر على قيادة حملة إحياء الابداع العربي البحت، وربما سنلجأ في يوم من الأيام للدّبلجة لنقل الأعمال الدرامية العربية وكذا السينمائية والكرتونية للعوالم الأخرى لنشر ثقافتنا والتّعريف ببنات أفكارنا.

الهوامش

(1) الزدجالي، " اعتبروا لها ايجابيات .... ولكن سلبياتها أكثر "، جريدة شبيبة، عمان المسقط، الأحد 28 أكتوبر 2013

(2) فلاح هاشم: فنان عراقي يتمتع بنبرة صوت مميزة وساحرة، وطالما جسد أدواراً جميلة جعلت منه أشهر الشخصيات التي كانت تدبلج في عالم الكرتون في دول الخليج، من أشهر الشخصيات التي جسدها شخصية " عدنان " في مسلسل عدنان ولينا. قدم فلاح على مدى عشر سنوات في الثمانينيات من القرن الماضي العديد من مسلسلات الرسوم المتحركة، التي لن يمحوها الزمن، ومن أبرز الشخصيات: فارس في مسلسل «الحوت الأبيض»، وكمال في مسلسل «الرجل الحديدي»، كما قام بالتعليق في بعض الحلقات من مسلسل «حكايات عالمية» و«فلونة» و«نحول».

(3) تامر عبد الحميد، فلاح هاشم: الأعمال الكرتونية الحالية بدون قيم، مقال في جريدة الاتحاد، أبو ظبي الجمعة 25 مارس 2016.

(4) محمد الكندي، " الفن العربي والدبلجة "، مداخلة بالمقهى الأدبي " ركن الكتاب، جريدة الوطن، عمان، 25 / 1/ 2018.

(5) رامي المرتضى، مقابلة تلفزيونية على قناة التلفزيون اللبناني.

(6) الزدجالي، م س.

(7) عبد الله بن بخيت، " دبلجة المسلسلات بين السياسية والفن "، جريدة الرياض، الرياض، الأربعاء 25 نوفمبر 2009.

(8) محمد المنفلوطي، المسلسلات المدبلجة..استهداف للغة العربية أم انفتاح على الثقافات؟ ، موقع هبة بريس 2017/1/27 .

(9) فريق القافلة، الدبلجة ثقافة مقحمة وحياة مستعارة، مجلة القافلة، المملكة العربية السعودية، عدد مارس أفريل 2018 .